ويذكّرهم شعيب عليه السلام بقوله:

﴿.. إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾ [هود]

أى: أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفَى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل فى نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال له : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال.

وقد شرَّف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه.

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام:

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ(1) إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾

إذن: فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه ؛ وباعتزازه بربه قد آوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم: افعلوا ما فى وُسْعكم ، وما فى مُكْنتكم هو ما فى مُكْنة البشر ، وسأعمل ما فى مُكْنتى ، ولست وحدى ، بل معى الله سبحانه وتعالى ؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة.

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذى أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلنى الذى أرسلنى ؛ وما دمتم تريدون الوقوف فى نفس موقف الأمم السابقة التى

(١) المكانة : رفعة الشأن والرزانة والتؤدة ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. (١٣٥)﴾ [الأنعام] أى: برزانة وتؤدة وتبصُّر . وقرىء: «على مكاناتكم» بالجمع . [القاموس القويم ٢/ ٢٣٢].

تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر [1] ، وبالقذف بأى شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تتوهموا أنى أتودد إليكم ؛ فأنا على بينة من ربى ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يَقُلْ شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله رداً على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ [2] لَرَجَمْنَاكَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [هود]

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود]

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدى ، لأنى سأعمل على مكانتى ، و﴿ .. سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود]

أى : أن المستقبل سوف يبيِّن مَنْ منَّا على الحق ومَنْ منَّا على الضلال ، ولمن سيكون النصر والغلبة ، ومَن الذى يأتيه الخزى ؛ أى : أنْ يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ ومَنْ منَّا الكاذب ، ومَنْ على الحق .

وكان لا بد أن تأتى الآية التالية :

---

(١) الريح الصر والصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . قال الزجاج : الصر والصرة شدة البرد . [قاله ابن منظور فى اللسان] .

(٢) الرهط : الجماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] من إضافة الشيء إلى ما يبينه . [القاموس القويم ١/ ٢٧٨] .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ[1] فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[2] (٩٤) ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد أورد فى هذه السورة : أسلوبين منطوقين أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩٤) ﴾ ، فى قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثانى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٦٦) ﴾ [هود]

فى قصة اثنين من الرسل[3] .

وقصة شعيب هى إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ ولم يأت بـ «الفاء» لأنها - كما نعلم - تقتضى التعقيب بسرعة ، وبدون مسافة زمنية ؛ وتسمى فى اللغة «فاء التعقيب» ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ[4] (٢١) ﴾ [عبس]

---

(١) الصيحة : اسم مرة من الصياح ، وهو الصوت الشديد . والصيحة : العذاب الذى يصحبه صوت شديد . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) ﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

(٢) جثم جثوماً : لزم مكانه لاصقاً بالأرض ، قال تعالى : ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) ﴾ [هود] كناية عن موتهم بحالتهم فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

(٣) هما نبى الله صالح ، ونبى الله لوط عليهما السلام . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٦٦) ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود] .

أما (ولما جاء أمرنا) فقد جاءت فى نبى الله هود فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٥٨) ﴾ [هود] ، وكذلك نبى الله شعيب فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٩٤) ﴾ [هود] .

(٤) قبره وأقبره : دفنه فى قبر . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ﴾ [عبس] وجمع القبر : قبور . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) ﴾ [الانفطار] . [القاموس القويم ٢/ ٩٥] بتصرف .

أما «ثم» فتأتى لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ(١) ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس]

وقد جاءت «الفاء» مرة فى قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذى ينزل فيه العذاب ، وقال :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]

فكان لا بد أن تسبق «الفاء» هذا الحديث عن عذابهم ، فقال :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٢) مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود]

أما هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

وكل أمر يقتضى آمراً ؛ ويقتضى مأموراً ؛ ويقتضى مأموراً به .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس] أى : بعثه من قبره . وقال تعالى : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] أى : أحييناها بماء المطر ؛ لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم] .

(٢) السجيل : الطين المتحجر . والمنضود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . ويقول تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق] أى : مرصوص بنظام . [القاموس القويم ١ / ٣٠٤] .

والأمر هنا هو الله سبحانه ؛ وهو القادر على إنفاذ ما يأمر به ، ولا يجرؤ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه ؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه.

إذن: فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم ؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر ؛ ولم يتخلف العذاب عن المجيء ؛ لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر لمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجرؤ العذاب على المخالفة لأنه مُسخَّر ، لا اختيار له.

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكونى والأمر التشريعى ؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله فى القرآن ؛ فتيقن من أنه حادث لا محالة ؛ لأن القضية الكونية هى من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعى يسعد به مَنْ يُطبِّقه ؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لهذا فى قصة أم موسى . . يقول جَلَّ شأنه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ[1] .. (٧) ﴾ [القصص]

فمنطق البشر يقول: كيف نقول لامرأة: إذا خفْت على ابنك ألقيه فى البحر ؟ كيف ننجيه من موت مظنون إلى موت محقَق؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتى لها معارض فى الذهن .

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها فى اليم ، فقال:

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه] النهر العذب [القاموس القويم صـ ٣٧٢ حـ ٢] .

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩)﴾ [طه]

كذلك أمر الحق- سبحانه وتعالى- اليمَّ بإلقاء التابوت - وفى داخله موسى - للساحل ، ولذلك فيقين أم موسى فى أن أوامر الله لا تتخلف، جعلها تسارع فى تنفيذ ما أمرها الله به.

والحق سبحانه يريد أن يُربِّبَ الإيمان ، أى : يزيده فى قلوب عباده ، فَهَبْ أن الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غُلبوا فافهموا أن شرط الجندية لله قد تخلَّف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة.

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ فى البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع هذه المخالفة ؟

إذن: فقد انهزم المسلمون الذين اختلت فيهم صفة من صفات جنديتهم لله.

ولا بد أن تلتقى القضيتان: القرآنية والكونية ؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب.

وسمَّى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال:

﴿ ..وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)﴾ [هود]

وسمَّى الحق سبحانه فى سورة الأعراف العذاب الذى لحق بهم : «الرجفة» ؛ فقال :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)﴾ [الأعراف]

وسماه فى قصة قوم عاد :

﴿.. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

وسمَّاه بالخسف فى عذاب قارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهى أن العذاب كان ينتقى القوم الكافرين فقط ؛ ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٩٤)﴾ [هود]

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر ؛ يُصرِّف الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة «نجينا» : من النجاة ؛ أى : أن يوجد بنجوة ؛ وهى المكان العالى ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ؛ فقد كانوا يقيمون فى اليمن ثم بعثرهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ[2] فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

---

(١) الصر ، والصرصر : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ .. (١١٧)﴾ [آل عمران] . والريح : الهواء المتحرك فى الجو ، وأصلها «روح» قلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها . والجمع : رياح ، وتجمع أيضاً على «أرواح» - على الأصل - وقال تعالى : ﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة] أى : شديدة مدمرة - على سبيل الاستعارة - كأنها إنسان جبار طاغٍ عاتٍ . [القاموس القويم] .

(٢) سبأ : اسم رجل يجمع عدة قبائل نشأت فى اليمن ، وسميت باسمه مدينة كبيرة باليمن ، كانت عاصمة ملك اليمن . قال تعالى : ﴿ .. وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل] . [القاموس القويم ١ / ٢٩٩] .

الْعَرِمِ (١) وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ (٢) وَأَثْلٍ (٣) وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ (٤) قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا في الجزيرة العربية ، وكانوا يخافون من الماء - رغم أنه سر الحياة ؛ وفضَّلوا التعب في البحث عن الماء للشرب لهم ولأنعامهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء جاءت كلمة «نجا» أي: صعد إلى مكان مرتفع.

واستخدمت كلمة «نجا» في كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر الداهم (٥)، فيقال: «نجا من النار» ؛ «ونجا من العدو» ؛ «ونجا من الحيوان المفترس» ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أي: المكان المرتفع. ويقال في الفعل (نجا) : نجا فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب.

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى مَنْ يُنجيه ، ويُقال: «أنجاه» ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة صعبة ليتحقق الفوز.

---

(١) السيل: الماء الكثير يجري ويسيل على الأرض. وسيل العرم: أي: سيلان العرم، وهي سدود اليمن، أو سيل المطر الشديد. [القاموس القويم ١/ ٣٤٠].

(٢) الخمط: كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس. قال تعالى: ﴿ .. ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ] لما غضب الله على سبأ جعل طعامهم هذه الأشياء، وذلك كناية عن شدة الفقر. [القاموس القويم ١/ ٢١١].

(٣) الأثل: شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان، أوراقه دقيقة، وثمره حَبٌّ أحمر مُرٌّ لا يؤكل. قال تعالى: ﴿ .. ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ] كناية عن ضيق العيش وشدة الفقر. [القاموس القويم ١/ ٧].

(٤) السدر: شجر النبق، وهو شجر شائك له ثمر، فيه حلاوة قليلة، واحدته سدرة، وهو كناية عن ضيق العيش، فقد ضيَّق الله عليهم الرزق لعدم شكرهم. [القاموس القويم ١/ ٣٠٧].

(٥) كل ما غشيك فقد دهمك. ويقال: يدهمهم أي: يفجؤهم. راجع لسان العرب.

ونسب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال «نجينا» .

ويأتى الحق سبحانه فى مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [1] (١) ﴾ [القدر]

فكل شىء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتى الله فيه بضمير الجمع : إنَّا .

أما إذا كان الشىء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتى بضمير الإفراد (أنا) مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. (١٤) ﴾ [طه]

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعيباً عليه السلام قال لقومه:

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. (٩٣) ﴾ [هود]

وكان عمل شعيب ﷺ فيه صحة وعزيمة التوكل ؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجَّه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أى عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة . . والمفتاح فى يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال فى الحديث القدسى:

«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملأ خير منه»[2] .

---

(١) أنزلناه : ابتدأنا إنزال القرآن العظيم . ليلة القدر : ليلة الشرف والعظمة . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف] .

(٢) تمام الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلىَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » من حديث أبى هريرة .

إذن: فالمفتاح فى يد العبد.

والحق سبحانه هو القائل:

«ومن تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً».

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى، فإنه سبحانه يتقرَّب إلى العبد أكثر وأكثر.

ثم يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى:

«ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة»[1] لأن المشى قد يُتعب العبد، لكن لا شىء يُتعب الحق سبحانه أبداً؛ لأنه مُنَزَّهٌ عن ذلك.

إذن: فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية فى الالتحام بمعية الله تعالى، ليضفى علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله[2].

وانظروا إلى سيدنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى الغار.. يقول الحق سبحانه:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة]

أى: أن رسول الله ﷺ ينهى صاحبه عن الحزن بعلة معية الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه، بل من قانون كونى، حين قال لرسول الله ﷺ: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا» لكنَّ رسول الله ﷺ لا يتكلم عن القانون

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) والإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) صفات الجمال هى الصفات المعبرة عن الرحمة والمغفرة والأمن والسلام مثل: الرحيم، الغفور، السلام، المؤمن. أما صفات الجلال فهى الصفات المعبرة عن القهر والجبروت والضر مثل: القهار، الجبار، الضار، المميت.

الكونى ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكوِّن سبحانه ، فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» [1].

فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار [2].

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ، والرحمة ألا يصيبك شىء.

ومثال ذلك: إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من الداء.

ولذلك انتبهوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين: شفاء ، ورحمة ، فإذا كان هناك داء وترجعه إلى منهج الله ؛ فالحق سبحانه يشفيه ، والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية.

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٦٧) ﴾ [هود]

وفى هذه الآية يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٩٤) ﴾ [هود]

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعْلى قريشاً ؛ ولكن لأن لغة قريش كانت مُصفَّاة من جميع القبائل العربية ، فهى تملك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعنى أن نطمس بقية القبائل.

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

(٢) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام].

ولذلك جاء فى القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطى لقريش سيادة فى الإسلام كما كان لها سيادة فى الجاهلية ، لذلك يأتى بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتى بتاء التأنيث ومرة لا يأتى بها.

والتأنيث إما أن يكون حقيقياً [1] أو مجازياً [2]. والتأنيث الحقيقى هو المقابل للمذكر ، مثل: المرأة. والتأنيث المجازى مثل : «الصيحة» و«الحجرة». وكانت القبائل العربية تتجاوز فى المؤنث المجازى ؛ فمرة تأتى «التاء» ومرة لا تأتى [3].

وإن كان هناك فَصْل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التأنيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٦٧) ﴾ [هود]

---

(١) المؤنث الحقيقى هو الذى يلد ، ويتناسل ، ولو كان تناسله من طريق البيض والتفريخ. ولابُدَّ فى لفظ المؤنث الحقيقى من علامة تأنيث ظاهرة أو مقدرة مثل : فاطمة ، ليلى ، هند ، عصفورة ، بقرة. . . إلخ. قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي .. (٣٥) ﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل : ١٨].

(٢) المؤنث المجازى هو الذى لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان لفظه مختوماً بعلامة تأنيث ظاهرة؛ مثل: ورقة ، وسفينة. . . ، أم مقدرة ، مثل: دار ، وشمس. ولا سبيل لمعرفة المؤنث المجازى إلا من طريق السماع الوارد عن العرب.

(٣) يجوز التأنيث وتركه إذا كان الفاعل حقيقى التأنيث ولم يتصل بالعامل - أى : فصل فاصل بين الفعل والفاعل المؤنث - مثل قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ .. (٢٥) ﴾ [القصص] وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] وإذا كان الفاعل مؤنثاً مجازياً ، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. (١٨) ﴾ [محمد] ، وأن يكون الفاعل جمع تكسير ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ .. (٣٠) ﴾ [يوسف]. وهناك تفصيلات كثيرة أخرى انظرها فى [«النحو الوافى» لعباس حسن (٤/ ٥٨٦ ، ٥٨٧) ، و«النحو المصفى» للدكتور محمد عيد (ص ٤٠٢ - ٤٠٦)].

فكأن الصيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسِل الصيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد.

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

ونلحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]

ومثل قوله الحق :

﴿ .. فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات]

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذى لم يغادره النوم بعد [1] ، مثل زُوَّار الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

ولم يقل سبحانه : «فأصبحوا فى دارهم جاثمين» ؛ لأن بعضهم قد لا يكون فى بيته ، بل فى مكان آخر لزيارة أو تجارة.

ومثال ذلك : قصة أبى رغال ، وكان فى مكة ، لكن الحجر الذى قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه فى البقاع ولم ينزل عليه الحجر فى مكة ؛ لأن

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القمر] والبكرة أول النهار . ويستعا للإسراع إلى الأمر فى أى وقت . [القاموس القويم].

الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر فى البيت الحرام ، الآمن ، وكأن الحجر قد تتَّبعه ، مثلما تتبعت الصيحة الكفار من أهل مدين [١].

ونلحظ فى الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهى «جاثمين» أن حرفى «الجيم» و«الثاء» حين يجتمعان معاً -بصرف النظر عن الحرف الثالث - ففيهما شيء من الهلاك ، وشيء من الغنائية . ومعنى «جاثمين» أى : مُلقَون على بطونهم بلا حراك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً [٢] .. (٢٨) ﴾ [الجاثية]

أى : يركع كل مَنْ فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : «الجثة» .

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ «الجثة» تعبيراً عن أى «ميت» عظيماً كان أم وضيعاً [٣] ، ثم توضع جثته فى القبر ، لتحتضنه أمه الأولى ؛ الأرض .

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله . فقالوا : من هو يا رسول الله؟ قال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢٠ ، ٥٦٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) جثا يجثو جثواً ، وجثى يجثى جثياً : جلس على ركبتيه فهو جاث وهى جاثية . قال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً .. (٢٨) ﴾ [الجاثية] كناية عن العجز والتخوف والترقّب كالسجين ينتظر المحاكمة . وقال تعالى : ﴿ .. ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم] تصويراً لحالهم فى ذل ومهانة ينتظرون العذاب الشديد . [القاموس القويم : مادة (جثى)] .

(٣) الوضيع : الدنىء من الناس ، وهو ضد الشريف . والضِّعة : الذل والهوان والدناءة . [لسان العرب - مادة : وضع] .

ومن يرغب فى تهدئة إنسان ملتاع [1] وغاضب لموت عزيز عليه ، فَلْيقُلْ له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : «لا».

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذى به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يَرِمُّ [2] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل «مدين» :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا [3] فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا [4] لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : أن من يمر على أهل «مدين» بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

---

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقة الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة وشدة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوع] .

(٢) الرميم : البالى من كل شيء . رم الميت : بلى جسمه ، قال تعالى : ﴿ .. مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] والرمة : العظم البالى . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] [القاموس القويم مادة (غنى)] .

(٤) بعد بَعداً وبُعداً : هلك . قال تعالى : ﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] أى : هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود . [القاموس القويم : مادة (بعد)] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهى غير الجنة التى ينال فيها الإنسان ما يشتهى بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود]

ومادة «الغنى» منها : الغناء -بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدى إلى الشيء الذى يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكتفى عما فى أيدى الناس .

وهكذا الغناء؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكَلام الذى يعجبه ، والملحَّن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذى يغنيك عن غيره .

والغَـناء ، أى : الإقـامـة فى مكان إقـامـةً تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا (١) فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (٢) (١٠٠) ﴾ [هود]

---

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود] وقد غنيت الدار بأهلها : عَمُرَتْ بهم . قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة (غنى)] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. (٣٩) ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) ﴾ [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزرع ، ومنها ما هلك فصار كالزرع الحصيد . [القاموس القويم : مادة (قوم)] .

أى: أن الأطلال [1] قائمة بما تحتويه من أحجار ورسوم [2] ، مثل معابد قدماء المصريين ، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة ، بل تجد عموداً منتصباً ، وآخر مُلْقىً على الأرض ، وباباً غير سليم ، ولو كانت كلها حصيداً ؛ لاختفت تماماً ، ولكنها بقايا قائمة ، ومنها ما اندثر [3] .

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات ، لأنها لو ذهبت كلها ؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفتاح» ليلتفت السامع وينصت ، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم ، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد .

وكلمة «بُعْداً» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد؛ لأنها هلكت بالفعل ، ومادة كلمة «بُعْداً» هى : «الباء» و«العين» و«الدال» وتستعمل استعمالين : مرة تريد منها الفراق؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها :

﴿ .. كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة .

---

(١) الأطلال : جمع طلل ، وهو ما شخص من آثار الديار القديمة . وقيل : طلل كل شىء شخصه . [انظر : لسان العرب] .

(٢) الرسوم : جمع الرسم . وهو بقية الأثر . وقيل : هو ما لصق بالأرض منها . ورسم الدار : ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض .

(٣) الدثور : الدروس وامّحاء الذكر ، وكل شىء امحى وذهب أثره فقد دثر . [اللسان بتصرف] .

والشاعر [1] يقول:

يَقُولُون لا تبعدْ وهُمْ يَدفِنُونَنى ... وأينَ مَكَانُ البُعدِ إلا مَكانِيَا

فهذا هو البعد الذى يذهب إليه الإنسان ولا يعود [2].

ولماذا خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا، وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين: «ألا بعداً»؟

لأن الصيحة قد جاءت لثمود [3]، وبذلك اتفقوا فى طريقة العذاب.

وتنتهى هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين، ونلحظ أن لها مساساً برسل مثل موسى عليه السلام، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام.

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت، أى: أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين. ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم؛ لذلك أرسل لكل بيئة رسولاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة.

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام. وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون.

---

(١) الشاعر هو: مالك بن الريب المازنى، شاعر من الظرفاء الأدباء الفُتّاك، اشتهر فى أوائل العصر الأموى، شهد فتح سمرقند وتنسك ومرض فى مرو وأحس بالموت فقال قصيدته التى منها هذا البيت وعدتها ٥٨ بيتاً أوردها أبو على القالى كاملة فى أماليه (٣/ ١٥١ - ١٥٤) توفى عام ٦٠ هجرية. انظر الأعلام للزركلى (٥/ ٢٦١).

(٢) البعد: الهلاك. بعد: هلك. فقوله تعالى: ﴿.. أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود] أى: هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود. والبعد: خلاف القرب، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ .. (٣٨)﴾ [الزخرف] أى: مقدار بعد أحدهما من الآخر. [القاموس القويم].

(٣) قال رب العزة سبحانه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥)﴾ [الحاقة] أى: أهلكوا بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. والطغيان: تجاوز الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة] أى: زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد. [القاموس القويم ١/ ٤٠٢].

ونحن نعلم أن الأماكن فى الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش فى موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى.

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه أزلاً أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات.

فما يحدث الآن فى أى مكان فى العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية فى ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ .

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون؛ لأن الأصل فى القصص القرآنى أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحى لتناسب الموقف الذى يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد [(١)].

ويبيِّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم فى النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوكة جاء بسورة يوسف.

وهكذا فليس فى القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها فى تثبيت الرسول ﷺ .

ولنا أن نلحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهى إلا بأن تأتى فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام.

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود] . ثبت الأمر : رسخ واستقر ضد تزلزل واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : يقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك ثبات معنوى . [راجع : القاموس القويم ١/ ١٠٥].

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين:

اللقطة الأولى: هى الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية: هى خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه فى قوله :

﴿ .. نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبَّته وهيَّأ له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثمانى حجج أو أن يتمها عشر حجج [1] ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي [2] ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

---

(١) الحجة - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً ، وجمعها : حجج . قال تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] أى : ثمانى سنوات كاملة . [القاموس القويم] .

(٢) أجر فلان فلاناً أجراً : أثابه على عمل أو صار أجيراً له ، وبالوجهين فُسِّر قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسُمِّى المهر أجراً مجازاً . وقال تعالى : ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٢٤) ﴾ [النساء] أى : مهورهن . وقال تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة] أى : ثواب عمله . [القاموس القويم ١ / ٨] .

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة فى قصة موسى عليه السلام.

ومن هذا ومن ذاك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنينات قد تلتقى مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قنَّن الحق سبحانه الطلاق فى الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مُرَّ المعاناة.

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل فى القرآن قانون السماء الذى يقى الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذى أنزل القرآن سبحانه هو الذى خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى فى كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه.

وفى قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرة عين له [(١)] ، رغم أن فرعون كان يُقتِّل أطفال تلك الطائفة [(٢)].

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه [(٣)].

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [القصص].

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص].

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص].

وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله:

إذا لَمْ تُصادِفْ فى بَنِيكَ عِنَايَةً
مِنَ الله فقدْ كَذَبَ الرَّاجِى وخَابَ المأملُ
فَمُوسَى (١) الذى ربَّاهُ جبريلُ كافرٌ
ومُوسَى الذى ربَّاه فِرْعونُ مُرسَلُ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة، فى البداية وفى النهاية؛ ليبيِّن لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل، وهو موسى عليه السلام.

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث -هو ماء مدين، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهى رأس الحربة التى تُوجَّه إلى المجتمعات الإسلامية؛ لأن البعض يريد أن تتبذل المرأة فى مفاتنها، لإغواء الشباب فى أعز أوقات شراسة المراهقة.

لكن القرآن حَلَّ هذه المسألة فى رحلة بسيطة، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (٢) .. (٢٣) ﴾ [القصص]

أى: تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه، وكان هذا المشهد مُلْفتاً لموسى عليه السلام، وكان من الطبيعى أن يتساءل: ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية؟! وقال القرآن السؤال الطبيعى:

(١) موسى السامرى الذى رباه جبريل خالف أمر ربه بفتنة، فعزل اجتماعياً وكتب عليه العذاب، بخلاف موسى الرسول عليه السلام.

(٢) ورد يرد ورداً وروداً: حضر أو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله. وورد الماء: قصده وبلغه ووصل إليه. واسم الفاعل منه: وارد. واسم المفعول: مورود. [القاموس القويم].
أمة من الناس: جماعة كثيرة منهم. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].
تذودان: تمنعان أغنامهما عن الماء. [كلمات القرآن].

﴿ مَا خَطْبُكُمَا [1] .. (٢٣) ﴾ [القصص]

فتأتيه الإجابة من المرأتين:

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ [2] وَأَبُونَا شَيْخٌ [3] كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظلَّتا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى عليه السلام ليمارس مهمة الرجل:

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤) ﴾ [القصص]

وهذه خصوصية المجتمع الإيمانى العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قربى ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيمانى العام.

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضى الرجل المسلم لها حاجتها.

وأذكر حين ذهبت إلى مكة فى عام ١٩٥٠م أن نزل صديقى من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التى لَمْ تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

---

(١) ما خطبكما: ما شأنكما ؟ أو ما مطلوبكما ؟ . [كلمات القرآن].

(٢) يصدر الرعاء: يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء . [كلمات القرآن].
والصدور: الرجوع والانصراف. يقال: ورد إلى البئر ثم صدر عنها أى: رجع . وصدر دوابه: أرجعها بعد ورودها . [القاموس القويم].

(٣) شاخ الإنسان يشيخ: أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من جاوز الخمسين من عمره. وله جموع كثيرة منها: أشياخ ، وشيوخ ، ومشايخ ورد منها فى القرآن جمع واحد هو: شيوخ . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧) ﴾ [غافر] . [القاموس القويم ١/ ٣٦٣].

نفس الباب. وقال لى: إن هذه هى عادة أهل مكة، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب.

وهذا كله مأخوذ من كلمة:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ..(٢٤)﴾ [القصص]

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم.

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التى تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرىء[1] ذلك، بل تأخذها على قدر الضرورة، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب:

﴿..يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص]

ويُنهى شعيب عليه السلام هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً، فيقول لموسى:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧)﴾ [القصص]

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يُلقى بابنته هكذا دون مهر[2]،

---

(١) استمرأ الطعام: وجده مريئاً أى: جيداً مستساغاً. واستمرأ الشىء: أحبه واستزاد منه. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) المهر: الصداق، والجمع: مهور. وهو الصدقة جمعها صدقات. قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً .. (٤)﴾ [النساء]. قال فى فقه السنة (٢/ ٢١٨): «لم تجعل الشريعة حداً لقلته، ولا لكثرته، إن الناس يختلفون فى الغنى والفقر، ويتفاوتون فى السعة والضيق، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها، وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة، بقطع النظر عن القلة والكثرة، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم».